مداخلة بعنوان

تفعيل عناصر الثقافة الشعبية للتنمية المستدامة

نماذج من العادات والطقوس والمسرح الشعبي والصناعة التقليدية

بوادي سوف

أ. خليفة قعيد تحت إشراف البروفيسور أحمد زغب

khalifagaid39@gmail.com

جامعة الوادي

يتناول موضوع المداخلة الموسومة بـ " تفعيل عناصر الثقافة الشعبية للتنمية المستدامة –نماذج من العادات والطقوس والمسرح الشعبي والصناعة التقليدية بوادي سوف" كيفية تفعيل عناصر الثقافة الشعبية. تتطرق الورقة البحثية في البداية إلى ضبط بعض المصطلحات المتعلقة بالموروث الثقافي أو الثقافة الشعبية وترجماته من المصطلح الأجنبي. ثم أبرزت الدراسة أهمية عناصر الثقافة الشعبية في التنمية المستدامة ودورها في التطور الاقتصادي وتنمية المجتمع وازهاره باعتبار الثقافة الشعبية تمثل الركن الثقافي الرابع من أركان التنمية المستدامة في مقررات الأمم المتحدة وهي الركن الاقتصادي، والركن الاجتماعي والركن البيئي حيث تنضوي الثقافة الشعبية ضمن الركن الثقافي. كما تتعرض الورقة البحثية إلى توضيح مفهوم الفاعلية في العنصر الثقافي التراثي كشرط لاستدامته وانتقاله من جيل الماضي إلى جيل الحاضر وكيفية هذا الانتقال وآلياته مع توضيح مفهوم الفاعلية والاستدامة الضامنة لاستمرار حياة العنصر الثقافي.

كما تعرض الدراسة نماذج واقعية لجملة من عناصر الثقافة الشعبية في التنمية المستدامة بمنطقة وادي سوف والجنوب مثل عادة استهلاك الشاي، ورقص الزقايري الشعبي، ومسرح الحكواتي الشعبي، كما تعرض الورقة أيضا بعض العناصر التراثية المتوفرة على مقوم الاستدامة ولكنها

غير مفعلة على غرار بعض الطقوس التي بإمكانها أن تكون مصدرا لجلب السياح وإدرار العملة الصعبة، تماما مثل بعض الصناعات التقليدية التي تطرقت إليها الدراسة ولا سيما بعض الصناعات الصوفية التقليدية مثل " العفّان" (الحذاء الصوفي) وعدد من الصناعات السعفية المستمدة من مكوّنات النخلة لا سيما " المظلة السعفية".

وتتوزع نقاط الورقة البحثية كما يلي: مفهوم الثقافة الشعبية – علاقة الثقافة الشعبية بالتنمية المستدامة– الفاعلية شرط في العنصر التراثي لتحقيق التنمية المستدامة– مظاهر الاستدامة لبعض عناصر الثقافة الشعبية– عادة استهلاك الشاي– رقص الزقايري الشعبي– مسرح الحكواتي الشعبي– عناصر تراثية لديها فاعلية الاستدامة ولكنها غير مفعّلة– الطقوس– بعض الصناعات التقليدية الحرفية: المظلة السعفية والعفّان (الحذاء الصوفي).

تستوجب الثقافة الشعبية توفر بعض الشروط اللازمة في عناصرها حتى تلعب دورها التنموي المتكامل في خدمة التنمية المستدامة لصالح الأجيال الحالية والمستقبلية. وتندرج الثقافة الشعبية أو الموروث الثقافي المادي واللامادي ضمن الركن الرابع للتنمية المستدامة، ألا وهو الثقافة، إلى جانب الركن الاقتصادي، والركن الاجتماعي والركن البيئي حسب مقررات اللجنة العالمية للبيئة والتنمية التابعة لمنظمة الأمم المتحدة.

وقد اخترنا استعمال مصطلح «الثقافة الشعبية» بدل «المورث الثقافي» استئناسا بآراء بعض الباحثين والدارسين العرب الذين فضلوا استخدام هذا المصطلح. ومردّ ابتعادنا عن استعمال مصطلح «المورث الثقافي» هو أنه يوحي بملابسات التوقف عند الماضي في كلمة «التراث» والتي تعني، في اللغة، ما وُرِثَ[1] ، مع اشتقاقاتها (الميراث، والإرث، والوراثة، والتوريث) وكلها من متعلقات الماضي وحسب، أو الشيء القادم من الماضي أو الراسب من الماضي في

الحاضر، دون تضمين ما تضيفه الجماعة الشعبية في الحاضر من ثقافة ومساهمات انتاجية في الصناعات التقليدية وإبداعات شعبية شفاهية جديدة.

مفهوم الثقافة الشعبية

يقصد بمفهوم « الثقافة الشعبية» اصطلاحيا "الثقافة التي تميز الشعب والمجتمع الشعبي، وتتصف بامتثالها للتراث والأشكال التنظيمية الأساسية"[2] وهذا المصطلح يعدّ في الحقيقة إحدى الترجمات العربية للمصطلح الأجنبي «فولكسكنده» (Volkskunde) ذي الأصل الألماني. ومن الباحثين من أبقى على المصطلح الأجنبي «الفلكلور» الذي صكه في عام 1845 ويليام جون تومز (*W.J.Thomas*) وعرّفه بأنه " المعتقدات والأساطير والعادات التقليدية الشائعة بين عامة الناس، وبأنه آداب السلوك والعادات، وما يراعيه الناس observances، والخرافات والأغاني الروائية ballades، والأمثال ...إلخ التي ترجع إلى العصور السالفة"[3] وهناك أيضا العديد من الترجمات العربية للمصطلح منها "(فولكلور)، (الموروث الثقافي)، (المأثورات الشعبية)، (الحياة الشعبية)، (الثقافة الشعبية)، (الثقافة التقليدية)، (الثقافة الشفوية)، (التقاليد المحلية)، (التقاليد الشعبية)، (التراث التقليدي)، (التراث الشفوي)، (التراث المعنوي)، (التراث الثقافي غير المادي)، (التراث اللامادي)، (التراث غير الملموس)، (التراث الثقافي)، (الأدب الشعبي)، (الفنون الشعبية)، الأمر الذي جعل المصطلح لهذا الحقل المعرفي الحديث ضمن الحقول المعرفية العربية ما زال يعرف إشكالا كبيرا داخل الوطن العربي، أفضى معه إلى تعدد وتناسل المصطلحات التي تعبر عن التراث الشعبي"[4]

ومن الباحثين العرب الذين تبنّوا مصطلح "الثقافة الشعبية" الباحث الأنثروبولوجي عبد الحميد حوّاس الذي يعني عنده هذا مصطلح الثقافة الشعبية " مكوّنات صنف الثقافة التي تتواتر بين

عامة جماعة شعبية، وتصير مشاعا بينهم يتداولونها على أنها من نتاج الخبرة الجمعية المشتركة، لهم –جميعا– الحق نفسه في استعمالها واستثمارها. وهذه الثقافة الشعبية يجري تداولها عن طريق التناقل «الشفهي»، والشفهية هنا لا تعني مجرد «التلفظ بالكلام» وإنما مقصود بها «التواصل الشخصي المباشر»[5]. كما استعمل الباحث الجزائري الدكتور عبد الحميد بورايو في العديد من كتبه[6] ، المصطلح نفسه، والذي يعني لديه " مجموع الرموز وأشكال التعبير الفنيّة والجمالية، والمعتقدات، والتصوّرات، والقيم، والمعايير، والتقنيات، والأعراف، والتقاليد، والأنماط السلوكية التي تتوراثها الأجيال، ويستمر وجودها في المجتمع بحكم تكيّفها مع الأوضاع الجديدة، واستمرار وظائفها القديمة، أو إسناد وظائف جديدة لها. وهو ميدان شاسع يخضع لعدة مقاربات منهجيّة من أهمها منهجيات البحث المستمدّة من الإتنولوجيا، والأنثروبولوجيا، وعلم الفلكلور، والدراسات الأدبية واللغوية بمختلف تياراتها"[7] وبناء عليه، فإن الثقافة الشعبية هي التراث الشعبي في حركته المستدامة في الزمن، الحامل للمخزون التراثي للأجيال الماضية مع ما تضيفه إليه في الحاضر الجماعة الشعبية من ابداعات شعبية لامادية من أشعار وحكايات وطقوس وأغان وخبرات ومهارات وغيرها، وأيضا من انتاجات مادية من صناعات تقليدية وحرفية وما إليها من عناصر الثقافة الشعبية.

علاقة الثقافة الشعبية بالتنمية المستدامة

توجدُ علاقة متينة بين الثقافة الشعبية باعتبارها إبداعات وانتاجات مادية ولا مادية لعبقرية الانسان وبين التنمية المستدامة التي تصب في خدمة هذا الانسان وازدهاره ورفع مستواه المعيشي والفكري حاضرا ومستقبلا. فإذا كانت التنمية المستدامة تُعرّف بأنها " التَّنمية المستمرَّة التي تتوفَّر لها مقوِّمات ناجحة ثابتة تكفل لها الاستمرار"[8] فإن الثقافة الشعبية تندرج ضمن الركن

الرابع للتنمية المستدامة، وهو ركن الثقافة كما جاء في تقرير اللجنة العالمية للبيئة والتنمية التابعة لمنظمة الأمم المتحدة بأنها "التنمية التي تستجيب لحاجيات الحاضر دون أن تُعرِّض للخطر قدرة الأجيال القادمة على تلبية احتياجاتها"[9] وترتكز التنمية المستدامة على أربعة أبعاد: البعد الاقتصادي، البعد الاجتماعي، البعد البيئي ثم البعد الثقافي الذي ألحق بها في إعلان مؤتمر جوهانسبورغ سنة 2002 حيث وضعت منظمة اليونسكو وبرنامج الأمم المتحدة للبيئة قواعد بروتوكول جديد يجعل من التنوع الثقافي ضمن الأولويات الدائمة حيث اعتبرت اليونسكو الصناعات الثقافية والإبداعية من أسرع الصناعات نمواً في العالم وقد ثبُت أنها خيار إنمائي مستدام يعتمد على مورد فريد ومتجدد هو الإبداع البشري، ويُقصد بمصطلح الإبداع قدرة الإنسان على وضع حلول وأفكار جديدة ومبتكرة نابعة من الخيال أو من مهارة الابتكار[10]. ثم قام خبراء اليونسكو بوضع برنامج تفصيلي يشرح البعد الثقافي ومدمجاته في التنمية المستدامة في مؤتمر هانغزهو العالمي للأمم المتحدة المنعقد بالصين في سنة 2013[11]

تفعيل العنصر التراثي لتحقيق التنمية المستدامة

الحقيقة أن عناصر الثقافة الشعبية من ابداعات وانتاجات مادية ولامادية وما ينطوي عليه من عادات وتقاليد وأعراف وطقوس وأدب شعبي ومهارات وخبرات شعبية وصناعات تقليدية وحرفية وغيرها لا يمكنها تحقيق الاستدامة في مجال التنمية المستدامة إلا إذا تم تفعيلها لكي تضمن الاستمرار في الحياة بما يلبي حاجة الأجيال الحاضرة والمستقبلية. إن العنصر التراثي لا يستطيع ضمان استدامته في الزمن أي استمرار وجوده من الماضي متكيفا مع الحاضر ثم المستقبل إلا إذا تحقق فيه شرط التفعيل الذي يربطه في هذه الأزمنة (الماضي والحاضر والمستقبل) حتى

يحقق الاستدامة، يقول سانتيف (Saintyves) " إن استمرارية التراث هي الصلة بين التراث القديم والجديد أو عناصر التراث المختلفة"[12]

والتفعيل يجعل العنصر الثقافي ذا فاعلية متحركة في الزمن، وهي تعني كل عمل أو قول يحقق نتائج على أرض الواقع، ومن ثمة فالفاعلية هي أثر أفكارنا في الواقع، فهي عند الباحث النمساوي بيتر دراكر (Peter Drucker) " القدرة على تحقيق النتائج المسطّرة، وهي فعل الجيّد لما هو مقترح، ويمكن قياسها، وهي شرط لتحقيق الكفاءة"[13] أما برأي المفكر مالك بن نبي فالفاعلية هي " حركة الإنسان في التاريخ. فإذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ، وإذا سكن، سكن المجتمع والتاريخ، ذلك ما تشير إليه النظرة في تاريخ الإنسانية منذ أن بدأ التاريخ، فنرى المجتمع حينا يزخر بوجود النشاط وتزدهر فيه الحضارة، وأحيانا نراه ساكنا لا يتحرك يسوده الكساد وتغمره الظلمات"[14] وبهذا، فإن تفعيل عنصر الثقافة الشعبية بمفهوم التنمية المستدامة هو تحريره ومنحه القدرة على الحركة في التاريخ وفي سيرورة المجتمع وتمكينه من قوته على المقاومة والصمود في وجه التلاشي والاندثار، كما يعني التفعيل إكساب هذا العنصر آليات الاستمرار والديمومة في الزمان والمكان حتى يلبي حاجات الأجيال الحاضرة وتستفيد منه الأجيال اللاحقة على نحو يحقق لها حياة أفضل وواقعا مزدهرا ومستقبلا زاهرا ومؤمّناً.

مظاهر تفعيل بعض عناصر الثقافة الشعبية

عادة استهلاك الشاي

يمكننا في هذا المقام الإشارة إلى استدامة العنصر التراثي المتمثل في عادة استهلاك الشاي في الجنوب الجزائري. ففي الماضي لا يخلو بيت من تحضير وتقديم الشاي للأسرة في أوقات محددة عند فطور الصباح وبعد الاستيقاظ من القيلولة بعد الظهر، كما يقدم في الجلسات عند اجتماع

الأصحاب في بعض الساحات، وأيضا في السهرات. غير أن هذه العادة التي تعود إلى أجيال سابقة داخل الأسرة التقليدية لدى الجماعات الشعبية سواء في الأرياف أو الحواضر استطاعت أن تضمن استدامتها لدى الأجيال الحاضرة، وذلك لما تحمله من قيمة اجتماعية وثقافية. وقد مكنّها التفعيل الاجتماعي من جعلها توفر مناصب شغل لمئات العائلات الفقيرة والشباب العاطلين عن العمل حيث أضحت بالنسبة إليهم مصدر رزق كريم. وهكذا خرجت عادة تحضير الشاي من البيوت كما كانت في الماضي إلى الشوارع والطرقات في الحاضر، وصار محضرو الشاي يتنافسون على إجادة تحضيره بنار الحطب بجوار الأرصفة، وأحيانا داخل خيمات صغيرة فيها رمل نظيف يجلس عليه الشاربون الذين يتناولون الشاي بمذاقات متنوعة، مركزة ومخففة بالسكر وبدونه بحسب حاجة الزبون، كما أن تفعيل هذه العادة جعلها تقدر على ربط الصلة بين أفراد المجتمع من خلال جمع الناس وفق مصالحهم وفئاتهم بإعطاء مواعيد لبعضهم في جلسات شاي عوض اللجوء إلى المقاهي.

والحقيقة أننا أمام عنصر تراثي وافد من الماضي حقق عنصر الاستدامة من خلال آلية تفعيله التي أكسبته القدرة على النفاذ إلى واقع الجيل الحاضر الذي أضاف إلى عادة شرب الشاي بعض الرتوشات التجميلية ليتكيف مع الزمن الحاضر كنصب طاولة عرض للزبائن توضع عليها كؤوس الشاي وبيع أنواع من المكسرات العصرية المملّحة مثل "الأكاجو" و"اللوز" و" الفستق" و"الفول السوداني المقشور" بالإضافة إلى أنواع من الحلويات والعلك وغيرها. بل أكثر من ذلك، استطاعت عادة استهلاك الشاي تغيير أذواق الكثير من المواطنين من ولايات الشمال العاملين في الجنوب الذين صاروا مدمنين على الشاي عوضا عن عادة شرب القهوة التي كانت لديهم، وهذا بعد أن وجدوا أن الشاي أفيد لصحتهم مع تغير ذوقهم لصالح الشاي بالإضافة إلى فضول بعض السياح الأجانب إلى تذوق هذا الشاي في فضائه التقليدي.

رقص الزقايري الشعبي

ينتشر في بعض ولايات الجنوب لاسيما وادي سوف فن الرقص الشعبي الرجالي المعروف بـ"الزقايري" الذي ضمِن أيضا استدامته من خلال فاعلية هذا العنصر التراثي الفني القادم من أزمنة سحيقة ليصل إلى زمن العصرنة ملبّياً حاجات ترفيهية لدى الأجيال الحاضرة. فقد كان رقص الزقايري قديما والذي يعني رقصة الفرسان المنتصرين لا يتجاوز الرقص في الأعراس بالعصي والانتظام وفق حركات الأيدي والأرجل رفعا وبسطا وضربا على الأرض مع بعض المواويل والأهازيج مع رقصة النخ النسوية، إلا أننا اليوم نلاحظ أن حاجة الناس للترفيه وجدت ضالتها في هذا العنصر التراثي الذي تم تفعيله من طرف الجامعة الشعبية لتتمتع به في حاضرها وربما في مستقبلها.

وحتى يتكيف هذا الرقص الشعبي وفق العصر، فقد صار للزقايري فرقا شعبية متخصصة لها اعتمادات رسمية من طرف الدولة وتتلقى مقابل نشاطها أجرا معلوما وبالتالي صار هذا الرقص الشعبي مصدر دخل لممارسيه. وقد أضافت الجماعة الشعبية المعاصرة للراقصين بعض الابداعات الجديدة لتتواءم مع روح العصر وتطورات الترفيه والتسلية مثل ارتداء الراقصين لبدلات شعبية متجانسة ذات لون أسود ولون أبيض وتحمل زركشات ورموز تقليدية، كما ألحقت بالرقص بنادق البارود بعد أن كان مقتصرا في القديم على العصي، كما تبع الرقص خيمة كبيرة تنصب في ساحة واسعة في بعض الأعراس وفي وسطها هودج يحمل العروس. وهكذا تلبي رقصة الزقايري المكيفة مع العصر حاجة ترفيهية لدى الأجيال الحاضرة وكذلك صارت مصدر دخل دائم لممارسيها لدى الفرق الشعبية.

مسرح الحكواتي الشعبي

إذا كان الشعر الشعبي الشفاهي لاسيما الملحون منه محظوظا دائما حيث وجد له مكانا في المهرجانات الرسمية والأعراس الشعبية في الوسط الاجتماعي الريفي على الخصوص، فإن الحكايات الشعبية وقصص البطولة والأمثال والألغاز والنوادر الشعبية لم تتح لها الفرصة في هذه المناسبات الاحتفالية، وأضحى تناولها مقتصرا على كبار السن من الشيوخ والعجائز حيث يتداولونها في حدود ضيقة في الزيارات العائلية أو على هامش عرس أو حفل ختان فيما لا تجد لها آذانا صاغية من لدن شباب اليوم.

ورغم أن الإنسان حكائي بطبعه على السليقة من خلال عفوية تداول السرود الشعبية للوقائع والأحداث القصصية اليومية وما إليها من النكات والنوادر والأمثال والألغاز، مقارنة بالشعر الذي يتطلب المهارة والوقت، فإن فن الحكي والقص أو بالأحرى الحكواتي الذي كان منتشرا في الماضي بين جمهوره في الأسواق الشعبية بمنطقة سوف، قد فقد وجوده اليوم. فوق ذلك لم تعطه الطبقة العالمة من النخب والهيئات الرسمية أي اهتمام أو تشجيع مثل الشعر الشعبي.

ولأن الانسان ميال بطبعه إلى الحكي والطرافة من باب التسلية والترفيه، فقد ظل دائم البحث عما يشبع حاجته الغريزية في الترفيه عن النفس والذي يخرجه، ولو إلى حين، من أسر توتراته وضغوطاته اليومية المتزايدة داخل العائلة وفي العمل والمحيط الذي يعيش فيه. وفي هذا الإطار، نشير إلى عودة ظهور « الحكواتيين» من خلال ما يسمى بـ " المسرح الشعبي" في السنوات الأخيرة في مقابل المسرح الرسمي أو النخبوي. وقد أدى تفعيل هذا العنصر التراثي إلى استدامته ليشبع حاجة جيل الحاضر في الترفيه. ويعتبر المسرح الشعبي استدامة تراثية وثقافية فنية متكيفة مع العصر للحكواتيين والمداحين في الماضي والذين لم يبق لهم أثر اليوم مثل قدور بوحباكة والعيد النوبلي حيث كانا يقومان وسط جمهورهما في الأسواق الشعبية بدور الممثلين " كان

الشيوخ وكبار السن يفضلون حكواتي آخر في أسواق وادي سوف يدعى العيد نوبلي، فقد كان العيد مكفوفا قليل الحركة إلا بالعزف على الربابة، وكان كثير المواعظ الدينية وكثير الاستدلال بالقرآن الكريم والحديث الشريف، أما قدور فكان رواد حلقاته الشباب ومتوسطي العمر لما يجدون فيها من تعليقات طريفة تصل أحيانا إلى درجة الابتذال، كالتلميحات الجنسية، فليس نادرا أن تسمع الجمهور يقهقه ضاحكا في حلقات قدور"[15]

وقد ظهر المسرح الشعبي في وادي سوف في البداية في شكل "سكاتشات" فكاهية شبه يومية في الإذاعة المحلية بعنوان " المسنطح" حيث كانت تستقطب إليها جمهورا عريضا من المستمعين لكونها تتناول بالمعالجة الكثير من الظواهر الاجتماعية التي يعيشها المواطن مستخدمة الكثير من الحكم والأمثال الشعبية والحكايات والنكات. لكن هذه "السكاتشات" عند توقف حلقاتها في الإذاعة، استمر وجودها في عديد المناسبات الاجتماعية التي تقيمها الجمعيات، وفي الاحتفالات الشعبية الخاصة كالأعراس، وحفلات الختان حيث تنصب منصة في قاعة أو في ساحة رملية أو مفروشة يجلس عليها الضيوف المدعوون ثم تشرع الفرقة الشعبية في تقديم ما لديها من مادة للعرض حيث تمزج بين الحكايات الشعبية والنكت والألغاز الشعبية والحكم والأمثال مع تطعيمها ببعض الأشعار الخفيفة وبعض مظاهر حياة الآباء والأجداد الممثلة للهوية، وكلها مكيّفة حسب مقتضى الحال ووفقا لحاجة الناس حيث يلعب أدوار هذه المسرحيات الشعبية أبطال يرتدون أزياء تقليدية محلية، ويتكلمون لغة شعبية ساخرة ومفهومة مفعمة بروح الفكاهة والحوار والسرد المؤثر وسط تصفيقات الجمهور حتى أن أبطال العرض المسرحي تراهم يتفاعلون مباشرة مع المتلقين في أخذ ورد بالكلام إلى درجة أن الممثلين يبدعون بالارتجال وعلى المباشر بعض القصص ذات الصلة بموضوع العرض أو تعديل فقرات منه بسلاسة عجيبة دون أن ينتبه الجمهور المتفرج إلى ذلك. فصار المسرح الشعبي في حالة مسرح " المسنطح" يستقطب جمهورا شعبيا عريضا

يفوق عددا جمهور المسرح النخبوي في قاعات المؤسسات الثقافية الرسمية ناهيك عن استمرار نشاط الأول بشكل شبه يومي وموسمية نشاط الثاني إن لم يكن معدوما بالكامل في أكثر ولايات الوطن.

إن مقوّم الاستدامة في المسرح الشعبي باعتباره عنصرا ثقافيا حاملا في طياته روح الحكواتي والمداح الشعبي تكمن في عملية تفعيله عبر آلية التواصل الاجتماعي وتزايد الطلب على عروض المسرح الشعبي عبر كامل مدن وقرى وادي سوف مادامت مناسبات الأفراح لدى الناس مستمرة في الزمان. وهكذا، انتقل المسرح الشعبي من مجرد "سكاتش" إذاعي" مسموع عبر البث الإذاعي إلى التموقع بقوة في الوسط الاجتماعي والتحول إلى مسرح شعبي بكل مواصفاته، ينهل مادته من تراث الماضي ومن الانتاج الابداعي الشعبي الذي أضافته الجماعة الشعبية في الزمن الحاضر.

وقد أدى تفعيل هذا العنصر الثقافي إلى تبني الجيل الحاضر لهذا النوع من المسرح الشعبي لأنه يلبي لديها حاجة غريزية للترفيه والتسلية من جهة، ومن جهة أخرى لأن هذا الفن الشعبي لا يتعارض مع المعتقدات، بل إنه يجد له في الدين مبررا، ومن ذلك الحديث الشريف في قوله صلى الله عليه وسلم " روّحوا على أنفسكم ساعة بعد ساعة، فإن القلوب إذا ملت كلّت". وتجدر الإشارة، في هذا المقام، إلى أن تفعيل العنصر التراثي في المسرح الشعبي وغيره من عناصر الثقافة الشعبية تقوم على طرفين هما: المرسل والمستقبل أي منتج المادة الثقافية الشعبية ومتلقي هذه المادة. لذلك فالمسرح الشعبي في مثل حالة مسرح " المسنطح" لا يتوقف عند مجرد عرضه على الجمهور المستقبل الذي يتبناه لكونه يشبع حاجة ترفيهية لديه، وإنما هناك الأهم من ذلك، وهو المرسل أي الطرف المنتج والعارض للعنصر الثقافي أي فرقة المسرح الشعبي. فبدونها لا

يمكن لهذا المسرح أن يوجد أو يستديم في الزمن. وسبب الاستدامة هنا هو القيمة المادية التي تحصل عليها الفرقة وهي أجرتها المعلومة من المال الذي يوفر لها مصدر رزق ويغنيها عن البطالة ومذلة السؤال، فيكون هذا العنصر الثقافي الشعبي، عندئذ، قد حقق هدفا من أهداف التنمية المستدامة وهو توفير مناصب شغل لممارسيه ومبدعيه داخل المجتمع الشعبي بعيدا عن الهيئات الرسمية الثقافية والاجتماعية التي مازالت متقوقعة على نفسها، وأسيرة البرامج الثقافية الكلاسيكية الممركزة وغير المتطورة مع واقع الحال، وظلت تهمش المسرح الشعبي الذي يلقى رواجا كبيرا في الأوساط الاجتماعية.

عناصر تراثية لديها فاعلية الاستدامة ولكنها غير مفعّلة

الطقوس

تنتشر في بلادنا الكثير من الممارسات الطقوسية التي مست تقريبا جميع مظاهر الحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية والبيئية. ومن وجهة التنمية المستدامة صارت العديد من الطقوس الشعبية مهمة بالنسبة إلى ما تحققه من مردود مادي لصالح الجماعات التي تمارسها فوق كونها تمثل رابطا روحيا معززا للهوية ولقوة الجماعة التي تمارسها، كما تمثل انتاجا معرفيا وسلوكيا للإنسان. وتوجد في وادي سوف على سبيل المثال طقوس مؤسسة على أساطير شعبية يمارسها دوريا وموسميا أفراد الجماعة الشعبية مثل طقوس قبيلة الفرجان في حضرة سيدي بوقربة، المؤسسة على أسطورة الولي سيدي بوقربة ببلدية الطالب العربي وببلدية بني قشة الحدوديتين، وغيرها من الممارسات الطقوسية الشعبية المعروفة في المنطقة. غير أن هذه الطقوس مازالت تجول في دائرة مغلقة حيث تقتصر على منتسبيها فقط الذين ظلوا محافظين عليها، حتى أن بعض الطقوس لا يكاد يلتفت إليها زائر أجنبي لانعدام الترويج الاشهاري. إنه بإمكان هذه

الطقوس أن تستقطب ليس السياح فحسب، بل مئات الباحثين الاجتماعيين والانثربولوجيين في العالم وغيرهم بما فيهم الطلبة، المعنيون بدراسة طقوس هذه الجماعات الشعبية كما تمارسها حقيقة وواقعا، اعتقادا وسلوكا، وليس بوصفها ممارسات تمثيلية مزيفة كما نراها في بعض المهرجانات الشعبية الرسمية عندما تستقدم السلطات فرقا فلكلورية لتنظيم بعض الاحتفاليات الطقوسية من باب التمثيل لا الحقيقة من أجل تذكر تراث الأجداد، فلا يستفيد من هذه المشاهد التمثيلية لا الباحثون ولا السياح الوطنيون والأجانب.

إن هذه الطقوس بحاجة إلى التفعيل من خلال دعوة المختصين في التراث الشعبي للاستشارة أو لتنظيم هذه التظاهرات الطقوسية في مواقعها الأصلية وسط جماعاتها الشعبية الأصلية. فيمكن في إطار السياحة الثقافية الوطنية والأجنبية عرض هذه العناصر التراثية للجماعة الشعبية في شكلها الطبيعي الممارس، مقابل الحصول على ثمن مادي، أي توفير دخل إضافي من العملة الوطنية أو الأجنبية لمنتجي هذا التراث أي تشجيع ممارسيه ماديا، حتى يدركوا أن لتراثهم قيمة حقيقية فيحافظون على استمراره ونقله للأجيال القادمة، وهو بالضبط ما عنته المنظمة العالمية للتربية والثقافة (اليونسكو) عندما ذكرت في أحد تقاريرها أن " الثقافة والاقتصاد السياحي وعوض أن يظلا متعارضين، ينبغي النظر لهما باعتبارهما يتبادلان الإيجابيات [...] والسياحة العالمية تمثل اتجاها مزدوجا، قيمًا اقتصادية نحو البلدان المستقبلة وقيما ثقافية نحو البلدان المرسلة"[16] بمعنى أن تعرض البلدان المستقبلة للسياح وللدول المهتمة عناصر ثقافتها الشعبية بكل ما تحتويه من قيم مقابل قيم اقتصادية هي المال أو أشياء مادية مثل مشاريع إنمائية تتماشى وقيم الجماعات المنتجة للتراث حتى تعمل على تطويره والمحافظة على استدامته.

الصناعات التقليدية الحرفية

تزخر بلادنا بالتراث اللامادي، لاسيما الصناعات التقليدية الحرفية مثل الصناعة الفخارية، والصناعة الصوفية، والصناعة السعفية في الجنوب خصوصا وغيرها. ونضرب أمثلة بالصناعة السعفية التقليدية ونختار منها " مظلة الرأس" ومن الصناعة الصوفية" العفان" أي حذاء الصوف التقليدي.

تعج أسواقنا بأنواع مختلفة من المظلات الأجنبية المستوردة خاصة من الصين والمصنعة من القماش أو من القصب والتبن وما إليه حيث لا يكاد يمر عليها الصيف حتى تتلف بسرعة وترمى ليعيد صاحبها شراء أخرى في موسم الصيف الموالي وهكذا، بينما المظلة السعفية المحلية التي مازالت تقبل عليها فئة الفلاحين والموّالين خصوصا هي أكثر صمودا ومقاومة للظروف المناخية حتى أنها تبقى لسنوات دون أن يطالها التلف.

والحقيقة، أن المظلة السعفية الجزائرية بوصفها عنصرا تراثيا قابلا للتفعيل لاستمرار حياته لدى أجيال اليوم حيث تتفوق المظلة السعفية على أي مظلة أخرى مستوردة. لكنها تحتاج إلى مهارة الصقل الجمالي في مصانع حرفية متخصصة لإنتاج كميات كبيرة منها ذات جودة عالية للاكتفاء الذاتي وللتصدير إلى الخراج حتى تنافس المظلات المستوردة، فيقبل عليها الجزائريون جميعا ولن تبقى مقتصرة على فئة الفلاحين أو الموالين. وبهذا يساهم هذا العنصر الثقافي التراثي في السياحة والاقتصاد الوطني من خلال إدرار العملة الصعبة والتعريف بالموروث الثقافي لأن الأجنبي لا يكتفي باستعمال المظلة السعفية على رأسه وحسب، بل سيتوغل في البحث من أجل التعرّف على بلد نشأتها ومصدر مادتها الأولية وكيفية انتاجها ومن ثمة التعرف على متفرعات الصناعة السعفية في بلادنا، ولعل هذا المظلة السعفية المصدّرة تستقطب زبونها الأجنبي

للسياحة في بلادنا، فنكون بذلك قد عرّفنا بتراثنا الثقافي اللامادي للأجانب، كما ضمنا له الاستدامة بتوفير مناصب شغل دائمة في مصانع إنتاج تقليدية مخصصة لهذا العنصر التراثي.

ومن الصناعات الصوفية لدينا مثال آخر مهمل رغم حاجته للتفعيل مع قابليته للتصدير لو عرفنا كيف نتعاطى معه، وهو الحذاء الصوفي المسمى" العفان" بمنطقة سوف وبعض مناطق الجنوب، وهو مصنوع يدويا من صوف الماعز، ولكنه غائب تماما اليوم باستثناء وجوده لدى البدو الرحل الذين يستعملونه لتلبية حاجة المشي اليومي وتدفئة القدمين في برد الشتاء وأيضا لمتانته وخفته والحيلولة دون غرق القدمين في الرمل. وهذا العفان لا ينقصه شيء عن الأحذية القماشية الخفيفة المستوردة من الصين وتايوان وأندونيسيا وماليزيا والهند والتي تحمل عدة مركبات صناعية ضارة بالصحة عند احتكاكها بالقدم وتفاعلها مع العرق حيث يمتص الجلد هذه المواد الخطيرة. فالعفان الصوفي منتج طبيعي ومتماش مع التنوع البيئي، ويحتاج فقط إلى لفتة قوية لتفعيله من لدن القائمين على القطاع السياحي والصناعة التقليدية لترقية صناعة العفان وصقله وتطهيره من شوائب الصوف العالقة وتطويره جماليا حتى يقبل على لبسه أولا الجزائريون بدل استعمال الأحذية الصينية الخطيرة، كما يمكن تصديره إلى الخارج لكونه يستطيع منافسة أحذية قماشية شبيهة به في بلدان العالم.

إن تفعيل هذا العنصر الثقافي التراثي من كمونه من خلال تطويره وتحسينه لا شك يحقق هدفا من أهداف التنمية المستدامة، وهو بالإضافة إلى توفير مناصب شغل لعائلات عديدة من خلال خلق مصانع تقليدية حرفية ثم تسويقه محليا وخارجيا لجلب العملة الصعبة للمساهمة في الاقتصاد الوطني، فإنه أيضا عنصر تراثي حامل لثقافتنا ومعبرا عن هويتنا في إطار التنوع الثقافي العالمي الذي دعت إليه مقررات الأمم المتحدة حفاظا على هوية الجماعات من الذوبان

والتلاشي بفعل العولمة التي سيطرت على العالم ولا تخدم إلا الدول الكبرى في عالم لا يرحم فيه القوي الضعيف.

انتهى

هوامش البحث

1- ينظر بن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، مصر، د.ط باب الواو، مادة ورث، ص 4809

2- هولتكرانس (إيكه-)، قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفلكلور. ترجمة د. محمد الجوهري ود. حسن الشامي الهيئة العامة لقصور الثقافة مصر 1972 ص185

3- هولتكرانس ، قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفلكلورص 280

4- ينظر ناسمي (محمد-)، مجلة الموروث الشعبي الالكترونية، مملكة البحرين،العدد السابع عشر، 20 أكتوبر 2016م (دون ذكر الصفحة)

5- ينظر حوّاس (عبد الحميد-) المادي وغير المادي في الثقافة الشعبية (رؤية عربية)،مجلة الثقافة الشعبية للدراسات والبحوث والنشر، العدد 09 ربيع 2010 البحرين ص12

6- ينظر أحمد زغب، الفلكلور، النظرية –المنهج- التطبيق- مطبعة دار هومة 34 حي لابرويار –بوزريعة الجزائر 2015 ص 14

7- د. عبد الحميد بورايو، افتتاحية الملتقى الوطني للموروث الشعبي، الندوة السادسة، رابطة الفكر والإبداع، الوادي، مطبعة مزوار، الوادي الجزائر ص9

8- ينظر مادة تنمية، معجم المعاني الجامع

https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/تنمية-مستدامة/

9- Gro Harlem Brundtland, Report of 42nd Session, UN General Assembly, Oslo, Norway,20 March 1987, UN publications, P16

10- ينظر تقرير لجنة التربية والاتصال والشؤون الثقافية للدول الفرنكفونية ، الكيبيك، كندا، جانفي 2011 ص2

11- ينظر إعلان مؤتمر هانغزهو الدولي، 17 ماي 2013، منشورات منظمة اليونسكو ماي 2013

12- هولتكرانس (إيكه-)، قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفلكلور ص36

13- Diana Marieta MIHAIU, Alin OBREANA, Marian Pompiliu Cristescu, Romanian Journal Of Economic Forecasting, 4/2010 P 136

14- مالك بن نبي " تأملات" دار الفكر، ص.ب 962، دمشق سوريا سنة 2002، ص129

15- أحمد زغب، العازف بالربابة، إصدارات الرابطة الولائية للفكر والإبداع، مطبعة الرمال، الوادي- الجزائر 2016 ص21 و22

16- Saskia Cousin, L'Unesco et la doctrine du tourisme culturel, Revue Civilisations internationale d'anthropologie de sciences humaines, L'Institut de sociologie de l'Université Libre de Bruxelles, N° 57, 2008, P44